نظرات في النفس والحياة

— ٣٢ —

تتمة نظرات ابن المقفع

للأستاذ ع. [illegible]

(٤) لا [illegible] بلية تخلصت منه في آخر لعلك لا تخلص منه — وقد يتخلص الناس من بلاء [illegible] بوقوعهم في بلاء آخر ويوهمون أنفسهم أنهم ربما يجدوا خلاصاً سهلاً من هذا البلاء الآخر متى شاءوا بعد اتخاذه وسيلة الخلاص من البلاء الأول، وأقرب مثل لذلك الكاذب الذي يتخلص من بلاء بكذبة موبقة وادعاء يوقعانه في مؤاخذة لو عرف بطلان كذبه [illegible] ادعائه، أو مثل الذي يتجنى على آخر ثم يحاول أن يتخلص من عاقبة جنايته بجناية أخرى.

(٥) [illegible] رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمي جاهلاً، ولعله إن حاسب نفسه [illegible] وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك الطريق المخوف، ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ثم يحمله الشره على [illegible] رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته وأقل الناس عذراً في اجتناب [illegible] الأعمال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعضه [illegible] رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا [illegible] في الحفرة بمنزلة واحدة، غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الضرير، إذ كانت [illegible] بصر جهة وهذا بما صار إليه جاهل — (وأفلاطون [illegible] سقراط رأي [illegible] الشر، وهو يقول كما روى أفلاطون عنه: إن المرء لا يرتكب الشر ويختاره وهو يعلم [illegible] يتجنب الخير وهو يعلم أنه خير، ولعله يعني أن الأهواء تطغى على بصيرته [illegible] جهالة فتوهمه أن في عمل الشر خيراً أكبر، وفي تجنب بعض الخير خيراً أعظم، [illegible] المأثور عن العلم كما رواه الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: العلم [illegible] الاستنابة للشر ناهية عنه والاستبانة للخير آمرة به).

(٦) إن في الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب في وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك. ثم يبلغ به الرضا إذا رضي أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، ويعطي من لم يكن أعطاه، ويكرم من لا حق له ولا مودة. فاحذر هذا الباب كله فإنه ليس أحد أسوأ حالاً فيه من أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم، فإنه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله ويتخبطه المس من يعاقب في غير من أغضبه، ويحبو عند رضاه غير من أرضاه كان جائزاً في صفته — (وهذا يذكرنا الأمراء الذين كانوا يعاقبون بالقتل رسلهم الذين يبلغونهم خبراً سيئاً، كفرعون في قصة ثيوفيل جوتييه، كما يذكرنا أيضاً [illegible] الإيطالي الذي كان يمنح من خدمه ومن لم يخدمه من خدم النزل والمطعم [illegible] لا أسمو إليه خشية احتقارهم إياه لأنه كان به الشعور بالنقص)

(٧) اعلم أن بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر، وأن شدة الاتقاء قد تدعو إليك ما تتقي (وتنزل بك ما تخاف من تخاف؛ لأن الإفراط في الحذر قد يؤدي إلى الحيرة والارتباك والقلق والتخلق بمظاهر الريبة، والمريب متهم والريبة تجذب عداوة الناس إلى صاحبها كما يجذب المغناطيس الحديد)

(٨) قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك، وتذل نفسك، ويرغب عنك ناصرك، ومثل ذلك مثل العود المنصوب في الشمس إن أملته قليلاً زاد ظله وإن جاوزت الحد في إمالته نقص الظل — (وفي التذلل للعدو يقول إبراهيم بن العباس صاحب المقطعات الجامعة:

يصبح أعداؤه على ثقة ... منه وخلانه على وجل

تذللاً للعدو عن ضعة ... وصولة بالصديق عن خطل

(٩) إياك أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك فيكون ثلمة من الثلم يتقحمون عليك منها، وباباً يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها. واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده، فإن الراد له محمود والقابل له معيب — (أين هذا الأدب من هراء صاحب الكتاب الذي القول المنسوب إليه: قرأت الخطب ريّا، ولم أضبط لها رويا، ففاضت ثم فاضت فلا هي نظماً وليس غيرها كلاما)

(١٠) أشياء لا تصلح إلاّ بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عقل ولا شدة البطش بغير شدة القلب ، ولا الجمال بغير حلاوة ، ولا الحسب بغير أدب ولا السرور بغير أمن ولا الغنى بغير جود ولا المروءة بغير تواضع ولا الخفض (أي اليسر) بغير كفاية ، ولا الاجتهاد بغير توفيق — (وإلاّ أدى العقل إلى الفساد ، والحفظ إلى الخطأ والبطش إلى الانكشاف والاعتدال ، وكان الجمال سمجاً ، وكان الحسب دناءة وشراسة وعاد السرور همّاً وقلقاً ، وكان الغنى بطراً ولؤماً ، والمروءة منّاً والخفض عسراً لا يفي والاجتهاد عناء وخيبة)

(١١) إن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء الظن بالأخيار وجعلته تجربته في صحبتهم في الخطأ — وأقل ما يكون من ذلك أن الأخيار اذا عاملوه بالكرم والخير واللين حسب كل ذلك منهم تملقاً وشركاً يريدون أن يوقعوه فيه — وقد يغالي فيحسب كل بريء متهماً حتى تظهر براءته ، بدل أن يحسب كل متهم بريئاً حتى تظهر إدانته ، ولطبيعة عملهم ومقابلتهم للأشرار ، يميل رجال الشرطة ومن شابههم إلى سوء الظن بالناس .

(١٢) اذا أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة للأمور من غير أن تظهر منك الهيبة فيفطن الناس لهيبتك ، ويجرئهم عليك ظهورها ، ويدعو اليك منهم كل ما تهاب . فاشعب طائفة من رأيك لمداراة ذلك من كتمان المهابة واظهار الجرأة والتهاون . وإن ابتليت بمجازاة عدو مخالف ، فالزم هذه الطريقة التي وصفت لك ، من استشعار الهيبة واظهار الجرأة والتهاون ، وعليك بالحذر في أمرك ، والجرأة في قلبك ، حتى تملأ قلبك جرأة ، ويستفرغ الحذر عملك — (وانما يريد بالهيبة ذلك الحذر الذي يصون عمله من الخطأ)

(١٣) ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم ، فيكون افتقارك إليهم في لين كلمتك وحسن بشرك ، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك ، وبقاء عزك : — (ليس لين الكلمة وحسن البشر نقصاً ومذلة كما يحسبها ذوو النقص . قال المأمون كما روى الثعالبي : ما تكبر أحد إلا لنقص وجده في نفسه ولا تطاول إلاّ لوهن أحسه منها)

(١٤) اذا نابت أخاك نائبة من النوائب ، من زوال نعمة ، أو نزول بلية ، فاعلم انك قد ابتليت معه إما بالمواساة فتشاركه في البلية ، وإما بالخذلان فتحتمل العار ، فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك ، وآثر مروءتك على ما سواها ، فان نزلت الجائحة التي تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها فأجمل (أي في معاملته وحسن ذكره ولقياه) فلعل الأجمال يسلمك لقلته في الناس (الدأب ؟ كتم ونقلت عنهم عدوا كي لا يقال إنه خذل صديقاً)

(١٥) اعرف عوراتك وإياك أن تعرّض بأحد فيما شاركها، واعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوضيع بالرجال في التماس مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم، وكل ذلك أبين عند سامعه من وضح الصبح، فلا تكونن من ذلك في غرور ولا تجعلن نفسك من أهله.

(١٦) من الدليل على سخافة المتكلم أن يكون ما يرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول، أو الرجل يكلم صاحبه فيجاذبه الكلام ليكون هو المتكلم، أو يتمنى أن يعرف صاحبه قد فرغ وأنصت، فإذا أنصت لم يحسن الكلام.

(١٧) وقّر من فوقك ولِن لمن دونك، وأحسن مؤاتاتك الأكفاء، وليكن آثر ذلك عندك مؤاتاة الإخوان، فإن ذلك هو الذي يشهد لك بأن إجلالك من فوقك ليس بخضوع لهم، وأن لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم.

(١٨) إن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة، وليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز، بل ربما أعيى الحزمة ما أمكن العجزة، فإذا أشار عليك صاحبك برأي فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعذلاً، تقول أنت فعلت هذا بي وأنت أمرتني، ولولا أنت ولا جرم لا أطيعك، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو ترك فبدا صوابك فلا تمنن ولا تكثرن ذكره، ولا تلم عليه إن كان استبان في تركه نصحك ضرراً، تقول ألم أقل لك؟ ألم أفعل؟ فإن هذا مجانب لأدب الحكماء.

(١٩) العجب آفة العقل، واللجاج قعيد الهوى، والبخل لقاح الحرص، والمراء فساد اللسان، والحمية سبب الجهل، والأنف توأم السفه، والمنافسة أخت العداوة. — (فالمعجب بنفسه يزين له عجبه الخطأ فلا يراه خطأ، والكثير اللجاج كثير العناد في الدفاع عن هواه، والبخل يربيه الحرص وينميه حتى يستفحل ويحرم نفسه وغيره مما وهبه الله، والمراء يستدرج إلى بذاءة اللسان، والحمية إذا استقرت كانت من دلالات الحمق، والأنف نفسه من التعالي في معاشرة الناس يؤدي إلى السفه، والمنافسة في حطام الدنيا كثيراً ما تؤدي إلى العداوة بين الآحاد والأمم.)